

الإخوة كارامازوف لـدستوفسكى

بقلم
الربستان على أرلهم

والتوقف عن تسجيل الخواطر التى تعاورته ، وتكاثررت عليه ، والعواطف والأحاسيس التى جاشت بنفسه ، واستبدت به ، وغلبته على أمره ، والتجارب المرة التى مر بها وخاض نغماتها ، بل إنه ليخيل للإنسان بعد قراءته أن قوى مجهولة قد سيطرت على شخصيته ولم تترك له الخيار ، فهو مرغم على الخلق الفنى خشية أن يسحقه ضغطها .

وسأكتفى بالإشارة إلى بعض ملابسات حياته التى تلقى ضوءاً على مؤلفاته ، وتمهد السبيل لفهم بعض جوانب هذه النفس المعقدة الغريبة البدوات والأطوار ، والحافلة بالزعات المختلفة ، والعواطف المشتجرة ، والخواطر المتعادية .

والظاهر أنه كان مقدراً له من أول نشأته وطالعة أمره أن يفتح عينيه أول ما يفتحهما على مناظر الشقاء والبؤس والألم ، فقد ولد سنة ١٨٢١ ميلادية فى مستشفى للفقراء فى موسكو كان يعمل فيه أبوه طبيباً جراحاً ، وكانت الأسرة تقيم فى جانب من هذا المستشفى وكان الكتاب المقدس وتاريخ روسيا الذى ألفه المؤرخ الروسى كارامازين هما أول ما قرأ من الكتب ، وكان وهو طفل يقضى فترة الإجازة الصيفية فى كوخ صغير

ذهب الناقد الروسى القدير يانكولافرن فى الدراسة القيمة التى وقفها على حياة دستوفسكى وخلقها إلى أن سبب فقر الفن الحديث وهبوط مستواه وتفاهته هو أنه ليس ثمرة الحيوية المتدفقة ، والدوافع النفسية القوية التى لا يستطيع الفنان مغالبة جيشان عباها ، وزواجر تياراتها ، ولا يجد معدى عن الخلق نزولاً على حكمها ، ورغبة فى التخفف من أثقالها ، فالفنان الحديث يخلق لأنه مسوق إلى الخلق ولا حيلة له فى مقاومة هذا الدافع وإنما يخلق لأنه يريد أن يخلق ، ولذلك نرى فى محاولاته الخلاقة أثر التكلف والمكابدة ، ومحاوله جمع أشنات نفسه ، وشوارد خواطره ، ولا يبدو على إنتاجه طابع الحتمية الداخلية التى تحاول لإظهار الحياة وتأكيدها ومها يكن نصيب هذا الاتهام الخطير الذى وجهه هذا الناقد الكبير إلى الفن الحديث بوجه عام من الصواب أو الخطأ فإننا حينما نقف حيال مؤلفات الكاتب الروائى الروسى العظيم فيودور ميخالوفتش دستوفسكى يطالعنا مشهد عجيب ، فهنا كاتب قد نلمح بعض الهنات فى فنه وأسلوبه ، وقد نخالفه فى بعض نزعاته المذهبية ، واتجاهاته الفكرية ، ولكننا نشعر مع ذلك كله شعوراً قوياً بأن هذا الرجل كان لا يستطيع الإمساك عن الكتابة

على مقربة من مدينة تولا الواقعة على نهر الدون ، وقد أتاح له ذلك فرصة لقاء المزارعين الروس الفقراء ومخالطتهم والتحدث إليهم ، وهذه الحقيقة هامة في تتبع نمو شخصيته وتطور تفكيره ، فقد ظل طوال حياته شديد العطف على هؤلاء القوم البسطاء ، وبقيت هذه الانطباعات الباكورة ناضرة واضحة في ذاكرته .

وبعد أن تلقى قسطاً من التعليم في موسكو غادرها في سنة ١٨٣٧ إلى بتروغراد ليلتحق بكلية المهندسين وكان أكثر الطلبة من أبناء الأعيان والسادة الأشراف ، فشعر بالعزلة والانفراد ، ووجد السبيل إلى المتعة والترفيه عن النفس في الإكباب على القراءة ، فقرأ للكتاب الفرنسيين والألمان ، ومؤلفات بوشكين وجوجل والناقد بلنسكى ، وأعجب بوجه خاص بكتب المؤلف الواقعي العظيم بلزاك وجورج ساند ويوجين سى وفكتور هيغو وديكنز وهوفمان ، وقد نقل رواية يوجيني جرانديه التي ألفها بلزاك إلى اللغة الروسية ، وقد أثر هؤلاء المؤلفون في توجيه عبقريته الأدبية .

وبعد تخرجه من الكلية التحق بإحدى الوظائف الحكومية ، ولكنه لم يطق احتمال تكاليفها ، فتركها بعد سنة من التحاقه بها ، واعتزم أن يعيش للأدب وأن يحصل على قوته عن طريقه ، ومن ذلك العهد تبدأ سلسلة متاعبه وأزماته المتوالية التي استمرت طوال حياته ، والاضطرابات العصبية والعلل الجسدية والنفسية التي لم يطلقه من إسارها سوى الموت .

وقد كتب أولى رواياته وهي رواية « المساكين » وظهرت سنة ١٨٤٦ وأعجب بها الناقد الروسى الشاعر نكراسوف ، وشاركه في الإعجاب بها بلنسكى زعيم النقاد الروسين في عصره ومن أبرز النقاد في تاريخ الأدب الروسى ، وقد وطلت هذه الرواية شهرته وأعلت مكانته ، وقد كادت هذه الشهرة الفاجئة في مداخل الشباب تفقده أترانه وتذهب بعقله فكتب إلى

أخيه من رسالة يقول فيها « أعتقد يا أخى أن شهرتى الآن فى اكتمال ازدهارها ، ففى كل مكان يتلقانى الناس بالترحيب والرعاية والاهتمام العظيم ، والأمير أوديشكى يرجونى أن أشرفه بزيارة ، والكونت سولوجب ينتزع شعره ياساً ، وقد أخبره باناييف أنه قد ظهرت عبقرية جديدة مستكسح الباقين فى طريقها ، وكل إنسان ينظر إلى باعتبارى أعجوبة من أعاجيب الدنيا ، وإذا ما فتحت فى ردد الهواء صدى ما يعنيه دستويشكى ، وبلنسكى محبباً لا حدود له ، وتورجنيف الذى عاد قريباً من باريس أبدى نحوى من أول الأمر شعوراً أكثر من شعور المودة ، وقد زعم بلنسكى أن تورجنيف فتن بى » .

ولكن الرواية التالية التى ألفها دستويشكى وأسماها « الشخصية المزدوجة » لم تعجب بلنسكى ، ولكن هذا لم ينل من عزيمة المؤلف الشاب الذى مضى فى عالم التأليف واثقاً من نفسه مظهراً فى مطالع حياته الأدبية شتى المزايا والاتجاهات التى أصبحت فيما بعد السمة العامة لمؤلفاته ، وقد مال منذ محاولاته الأدبية الأولى إلى وصف حياة « المستذلين والمهانين » واستطاع أن يجمع بقدرة خارقة بين البراعة فى وصف الشخصيات ودقة التحليل النفسى النفاذ إلى أعماق القلوب ، وخفيا السرائر ، وبرغم ما فى رواياته من ازدحام الحوادث وتعقيد الحبكة الروائية فإن أهم ما يعنيه هو وصف ما يحول فى نفوس أبطالها ، والدوافع التى تحركهم ، ومعنى ذلك أن الناحية النفسية هى محور اهتمامه ، ومن ثم نراه فى رواياته يتخير المواقف التى يبلغ فيها التوتر النفسى أقصى مداه ، وأشد أزماته ، وهو مولع بالمشاهد المؤسسية حتى كأنه يستشعر المتعة فى الاستغراق فى وصفها .

وقد كتب فى السنتين الأوليين من حياته الأدبية علاوة على رواية الفقراء ورواية الشخصية المزدوجة بعض القصص القصيرة ، ثم وقعت الحادثة التى

اعترضت سير حياته الأدبية وكان لها تأثير شديد في نفسه ومقبل حياته وطريقة تأليفه وموقفه من الحياة والناس بوجه عام .

ففى اليوم الثالث بعد العشرين من شهر إبريل سنة ١٨٤٨ قبض عليه بوصفه عضواً فى جماعة بتراشيفسكى الثورية وألقى به فى غيابة سجن القديس بطرس والقديس بولس الرهيب السبي الشهيرة فى انتظار المحاكمة العسكرية ، وفى اليوم الثانى بعد العشرين من شهر ديسمبر من السنة نفسها نقل مع غيره من الثائرين - دون أن يسمعوأ أى بيان - إلى ميدان سميونوفسكى ، وقد وصف لنا دستويشفسكى نفسه هذا المشهد فى رسالة بعث بها إلى أخيه منها قوله « فى هذا اليوم الثانى بعد العشرين من شهر ديسمبر نقلنا جميعاً إلى ميدان سميونوفسكى ، وهناك تلى علينا الحكم بالإعدام ، وأعطينا الصليب لنقبله ، وكسر الخنجر فوق رؤوسنا ، وأعدت لنا الملابس الجنزية (القمصان البيض) ووقفوا ثلاثة منا أمام سياج من الخوازيق لتنفيذ حكم الإعدام ، وكان ترتيبى السادس فى الصف ، وقد أخذوا ينادوننا بجاعات كل جماعة مكونة من ثلاثة ، وتبعاً لذلك كنت فى الفوج الثانى ، ولم يبق لى فى الحياة سوى دقيقة واحدة . . . وعانقت بلسنشف وديروف اللذين وقفا على مقربة منى ، وهممت بتوديعهما ، وفى اللحظة الأخيرة سمع صوت الانسحاب ، وأعيد اللذين كانوا قد شدوا إلى سياج الخوازيق وتلى علينا أن صاحب الجلالة الإمبراطورية قد وهبنا حياتنا . . . » .

وكان المشهد بمخاديفه تمثيلية رهيبة قصد بها إعطاء درس قاس لهؤلاء الشبان الثائرين ، وقد طار صواب أحد المحكوم عليهم فى المكان نفسه ولم يشف من جنونه ، وقد مر دستويشفسكى بلحظات مرة قاسية فى خلال الدقائق القلائل التى كان ينتظر فيها الموت لا يعرفها معرفة أكيدة إلا من كابده أمثالها .

وبدلاً من الحكم بالإعدام حكم على دستويشفسكى بقضاء ثمانى سنوات فى سجن سيبيريا ، وفى اليوم نفسه قيد هو ورفاقه بالأغلال وذهب إلى المنفى مع القتلة السفاحين واللصوص وعتاة المجرمين من نفاية الأمة الروسية وسواد البشر المسوخى الطبايع المنتكسى الأخلاق .

وكتب دستويشفسكى من سيبيريا يقول لأخيه « لقد عرفت المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فى توبولسك ، وفى أومسك وطلت نفسى على أن أعيش معهم أربع سنوات ، وهم قوم غلاظ غضاب ناقمون ، وهم يكرهون العلية كراهة لا حد لها ، وينظرون إلينا بعين السخط والتفور لأننا ننتسب إلى تلك الطبقة ، ولو أنهم استطاعوا وتيسرت لهم الأسباب لما أبقوا علينا ، فقدر لنفسك مدى الخطر الذى كان يهددنا ونحن نعاشر أمثال هؤلاء الناس خلال سنوات ونواكلهم ، وننام معهم ، ولا سبيل لنا للشكوى من الإهانات التى كانوا لا ينفكون يوجهونها إلينا ويقذفونها بها - مائة وخمسون من الأعداء لا يتعبون من اضطهادنا - إنهم يجدون فى ذلك سرورهم ومسلاهم ومتعة لقضاء أوقات فراغهم ، وكان مجننا الوحيد هو عدم اكترائنا وتفوقنا الأخلاقى الذى كانوا يجدون أنفسهم مضطرين إلى الاقرار به واحترامه » .

وهكذا بعد أن كاد يذهب بعقله النجاح الذى صادفه فى مطلع حياته الأدبية واستطارت شهرته فى آفاق روسيا أرغم على تلقى درس فى التواضع والاستسلام . وكان يتسلى وهو فى هذه الجحيم بالقراءة فى نسخة من « العهد الجديد » أعطها له زوجة بطله صحبت زوجها إلى سيبيريا وكان من اللذين اشتركوا فى ثورة ديسمبر سنة ١٨٢٥ التى أعقبت موت القيصر الإسكندر الأول وصعود القيصر الطاغية نيقولا الأول إلى العرش . وبعد أن أمضى أربع سنوات فى الأشغال الشاقة ألحق بإحدى الكتائب فى سيبيريا دون أن يسمح له بالعودة إلى روسيا الأوربية .

وفي سنة ١٨٥٦ تزوج أرملة الكابتن إساييف ، وكان من الضباط المقيمين في سيبيريا وأصيب بمرض السل وقضى نحبه ، ولم يسمح لدستويفسكى وزوجته وابنها من زوجها السالف بالعودة من سيبيريا إلا بعد ثلاث سنوات ، وبطبيعة الحال كان للسنوات التي قضتها في سيبيريا تأثير كبير في حياته الروحية وتوجيه ملكاته الأدبية ، وقد كتب هو نفسه إلى أخيه يقول « إنى لا أحاول أن أخبرك عن التغيير الذى طرأ على روحى وعقيدتى وعقلى وقلبى في خلال هذه السنوات القلائل ، ومع ذلك فإن التركيز الأبدى والالتجاء إلى حمى نفسى هرباً من مرارة الواقع قد أثمرا ثمرتهما ، وعندى الآن آمال وفي النفس حاجات لم أفكر فيها قط من قبل ولا خطرت لى ببال ، ولكن هذا كله سيبدو لك لغزاً خفياً . . . » .

وكأنما قدر له أن يمر بالبحيم ويشاهد أهوالها وفظائعها ليكون أعرف الناس بشقاء الروح وما ينتابها من الآلام والأسقام ، وكانت النتيجة المباشرة لذلك كله ظهور كتاب « بيت الموقى » وهو أول كتاب قدمه للطبع بعد أن أكره على التوقف عن التأليف مدة إحدى عشرة سنة ، ويكاد الكتاب أن يكون ترجمة ذاتية لحياة ديستويفسكى في السجن ، ولا أعرف نظيراً لهذا الكتاب في وصف نفسية المجرمين والتغلغل إلى مستكنات ضميرهم وخفايا بواطنهم ، وهو مكتوب بأسلوب سهل واضح وبرغم ما عاناه من سوء المعاملة وضروب الاضطهاد فإن الكتاب خال من آثار الضغينة والتحامل ، بل ينم على العطف الشديد ومحاولة لكشف نواحي القوة والجمال في تلك النفوس المغيبة في ظلمات الأقبية ووراء جدران السجون ، وهو يقول في ذلك « كم من الشباب غاضت من نفوسهم المسرات ، وكم من قوة ذهبت ببدناً ، وضاعت عبثاً بين تلك الجدران ، شباب وقوة كان يمكن أن تنتفع بهما الدنيا ، وعلى أن أدلى برأى الصريح في هذا الموضوع ، فربما كان هؤلاء

الرفاق البائسون أقوى عناصر شعبنا وأعظمها حظاً من المواهب ، وهناك تذهب ضياعاً قوة الجسد وقوة العقل ، فعلى من تقع تبعة هذا الخطأ ؟ » .

وهذا الموقف الذى وقفه ديستويفسكى من المجرمين العتاة هو الذى بعث نيتشه على أن يقول في كتابه « فجر عبادة الأوثان » « إن طراز المجرمين هو طراز الرجال الأقوياء الذين أصابهم المرض . . . وشهادة ديستويفسكى في المشكلة التى تواجهها لها أهميتها ، وقد اتفق لى عرضاً أن يكون ديستويفسكى هو الخبير النفسانى الأوحى الذى أصبت عنده شيئاً أعلمه ، وهو من أسعد قذفات الحظ التى صادفتنى في حياتى ، ووقوفى على مؤلفاته أسعد حتى من اكتشافى لستندال ، فهذا الرجل البعيد الغور الذى أصاب الإصابة كلها في تقويمه لحالة الألمان السطحيين أدرك أن مجرمى سيبيريا الذين عاش بينهم سنوات عدة - هؤلاء الجنة الذين فقدوا الأمل ولم يكن هناك سبيل إلى عودتهم للمجتمع - مختلفون اختلافاً كبيراً حتى عما كان يتوقعه ، أى أنه وجدهم قد قدوا من أحسن وأقوى وأثمن مادة تنمو على الترى الروسى » .
ومما هو جدير بالملاحظة أنه في أثناء وجوده في سيبيريا أخذت تظهر بوادر المرض الذى لازمه طوال حياته وهو مرض الصرع ، ويشير ديستويفسكى كثيراً في مؤلفاته إلى هذا المرض وأعراضه بوجه خاص ، وكانت تسبق نوبات الصرع عند ديستويفسكى ومضات تنير بصيرته وتكشف له الكثير من الحقائق الخفية وينجلي عنها الغموض والإبهام ، وهى حالة شبيهة بحالات إشراف الوعى وشفافية الحس التى يصفها ويتحدث عنها أقطاب الصوفية ، ويصف لنا كري洛夫 - أحد أبطال رواياته - هذه الحالة بقوله « هناك لحظات - قد تأتى خمس أو ست في المرة الواحدة - تشعر فيها فجأة بأن التناقض الأبدى قد اكتمل ، وهو شئ ليس أرضياً - ولا أعنى بذلك أنه سماوى - وإنما أقصد أن الإنسان لا يطيق ذلك في مظهره الأرضى ، وعليه أن

يتغير عضوياً أو يقضى نحبه ، وهذا الشعور واضح جلي ومدلول على الصواب ، وكأنما تستوعب الطبيعة كلها وتقول فجأة « نعم ، هذا حق » . . ولو طال أمد هذه الحالة أكثر من خمس لحظات لما احتملتها النفس وكان هلاكها حتماً مقضياً ، وفي هذه اللحظات الخمس أحيا حياة كاملة ، وإني لأشتريها بحياتي كلها لأنها تساوى ذلك وتستحقه ، ولأجل أن احتملها الإنسان عشر ثوان لا معدى له عن أن يتغير عضوياً » .

وأمثال هذه الحالات من حالات الوعي الإنساني تثير مشكلات كثيرة ، فمن الواضح أن الإنسان المطبوع على التفكير وإخضاع كل شيء لسلطان العقل وحكم المنطق لا يستطيع أن يحجب نفسه توجيه هذا السؤال ، وهو هل هذه الومضات المضيئة عن ذلك التناسق الأعلى لها قيمة موضوعية أو هي مجرد أوهام وأخيلة ذاتية ؟ ومعنى ذلك أن الإنسان المفكر يحاول أن يجد سنداً عقلياً للحقائق التي تطلعه في هذه الحالات ، ولكن لما كان الحصول على هذا السند العقلي من المسائل المتعذرة لذلك يظل التعارض قائماً والتوتر مشتدأً بين هذين اللونين من ألوان الحق ، وهذا الصراع يبدو واضحاً في نفسية دستوفسكى وفي نفوس الكثيرين من أبطال رواياته .

وبعد عودته إلى بتروغراد بدأ هو وأخوه ميخائيل في سنة ١٨٦١ في إصدار مجلة دورية اسمها « فرميا » (أى الزمن) وقد نشر فيها روايته « بيت الموتى » وأولى رواياته الكبيرة وهي رواية « مستدلون ومهانون » وبعد مضي سنتين على صدور المحلة عطلتها الحكومة القيصريّة وقد أضر ذلك ضرراً بليغاً بأحوال دستوفسكى المالية التي كانت عرضة دائماً للأزمات من جراء سوء تدبيره وإسرافه في المقامرة ، وأراد في سنة ١٨٦٤ أن يصلح أحواله المالية فأنشأ مجلة « الإبوكا » ولم يقدر لها النجاح برغم أنه نشر بها روايته « رسائل من العالم السفلي » وازدادت أحواله اضطراباً وسوءاً بموت شقيقه

وزوجته في السنة نفسها ، ولما كان مضطراً إلى أن يعول أسرة شقيقه المتوفى فقد تكاثرت عليه الديون وارتبكت أحواله المالية ارتباكاً شديداً ، وأفلست مجلة « الإبوكا » ولم يجد بداً من مغادرة وطنه هرباً من الدائنين ، وعاد بعد أشهر إلى بتروغراد ، وظهرت روايته « الجريمة والعقاب » سنة ١٨٦٦ ، وقد وفق دستوفسكى في هذه الرواية توفيقاً عظيماً نادر المثال في تحليل الجريمة وبواعثها وعمت شهرة الرواية روسيا بأسرها ، ووطدت مكانته الأدبية ، وزادت شهرته سطوعاً وتألقاً ، ولكن تعالي شهرته مع ذلك لم يقلل من ديونه ، وبلغت أحواله من السوء حداً كان يهدده بدخول السجن ، ولذلك تزوج في سنة ١٨٦٦ وغادر البلاد - أو بلفظ أصرح - هرب مع زوجته الثانية إنا جريجوريثنا إلى غرب أوروبا .

وقد شاءت المصادفة أن يمر بمدينة بادن في ألمانيا أثناء هربه ، وأقبل على المقامرة وخسر كل ما كان معه من النقود للسفر ، واضطر إلى رهن كل ما معه من أمتعة السفر بما في ذلك ملابسه وملابس زوجته ، وكان هذا بدء السنوات الأربع التي قضها شاربداً متنقلاً يعاني البؤس والحرمان في فرنسا وسويسرة وإيطاليا وألمانيا ، وكان لا ينفك عن إرسال الرسائل إلى أصدقائه وناشرى كتبه في روسيا يلتمس إمداده بالمال ، وأكتفى بنقل فقررة واحدة من رسالة له كتبها للشاعر ميكوف في ٢٨ أكتوبر سنة ١٨٦٩ وأرسلها إليه من درسدن وهي قوله « كيف أقبل على التأليف وأنا أعاني الجوع وقد اضطرت إلى رهن سراويلي للحصول على ثمن البرقية » .

وكان مما يزيد متاعبه خلافه الدائم مع ناشرى كتبه ، وسرعته المحمومة في كتابة رواياته ، وكراهته للروح البورجوازية السائدة في أوروبا ، وشدة شوقه إلى العودة لروسيا ، والشكوك والآلام التي كانت تشغل باله ، وتطغى على خواطره ، ونوبات الصرع التي

كانت تتوالى عليه ، وفي مثل هذه الأحوال المزعجة والظروف النكدية المخرجة كتب دستويشسكى روايتين من أهم رواياته وهما رواية «الأبله» ورواية الممسوس أو الشياطين .

وفي خلال السنوات التي كان دستويشسكى يعاني التشريد والفاقة في خارج روسيا كانت أحوالها تعد بشيء من التحسن والسير في طريق التقدم بعد أن انبعثت فيها حياة جديدة في أعقاب تحرير الأرقاء سنة ١٨٦١ في عهد القيصر الإسكندر الثاني ، وكان هناك اتجاه إلى الإصلاح السياسى والاجتماعى ، وقد اشترك في هذه الحركة معظم السياسيين الروس والكتاب البارزين ، وقد انقسموا إلى فريقين ، وهما الفريق المناصر للمثل العليا الغربية وفريق أنصار النزعة السلافية ، وكان أنصار الغرب يعملون على تجديد الحياة الروسية وإعادة تنظيمها على أسس الحضارة الغربية ، وقد شعر دستويشسكى بنفور شديد من العقلية السائدة في الغرب أثناء إقامته خارج روسيا ، وكان هذا الشعور يزيده تعلقاً بروسيا والإيمان برسالتها ، كتب في سنة ١٨٦٧ إلى صاحبه ميكوف من رسالة « أقسم بالله إن الحياة بلا وطن سعي وعذاب ! إني في حاجة إلى روسيا من أجل عملى ومن أجل حياتى ، إني مثل سمكة أخرجت من الماء . . . إني أفقد نشاطى ومواهبى جميعها . . لقد شعرت أخيراً بأن أفكاراً جديدة كثيرة قد تجمعت عندي حتى أنى أستطيع أن أكتب فصلاً طويلاً عن علاقة روسيا بغرب أوروبا وعن الطبقات العليا في المجتمع الروسى ، وحقيقة أنى سيسعى أن أقول أشياء كثيرة ، إن الألمان يثيرون حفيظتى ، وأسلوب حياتنا في روسيا وحياة الطبقات العليا والإيمان بأوروبا والحضارة التي انغمست فيها هذه الطبقات العليا — ذلك كله يثير غضبى كذلك » وكان كلما طالبت إقامته في أوروبا ازداد نفوراً من الغرب وحضارته ، وأخذت مشكلة أوروبا وعلاقتها بروسيا تشغل باله حتى شملت أفكاره

جميعها سواء في الأخلاق أو الاجتماع أو الدين ، ويبدو ذلك في رواية الأبله ، ورواية الممسوس ، وبوجه خاص في الإخوة كارامازوف التي بدأ ظهورها سنة ١٨٧٩ .

وحينما عاد إلى روسيا تحسنت حياته من الناحية المادية ويرجع الفضل في ذلك إلى زوجته التي أبجادت الإشراف على أحواله المنزلية ، وكانت مكانته قد ازدادت علواً وقوى تأثيره الروحى في روسيا وعده كثيرون من الروس نبى روسيا الحديثة ، وبرغم الصدمات الشديدة التي صادفته في حياته ونوبات الصرع التي كانت ما تنفك تعاوده وتقدمه في السن فإنه كان شديد التوفر على التأليف جم الحيوية ، وكأن توقد روحه كان يبعث النشاط في جسده العليل ، وفي يوم ٨ يونيو سنة ١٨٨٠ ألقى في موسكو محاضراته عن بوشكين ، وقد أحدثت تأثيراً بالغاً في نفوس الحاضرين ومضت أشهر قلائل كان يتأهب خلالها ليبدأ من جديد كتابة «يوميات مؤلف» ولكن موته الفجائى في يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٨١ عاقه عن إتمامها ، وقد كانت جنازته من الحوادث ذات الدلالة الكبيرة في بتروغراد فقد سار فيها أفراد من مختلف طبقات الأمة الروسية وقارب عدد مشيعيه إلى مئواه الأخير الأربعين ألفاً .

ورواية الإخوة كارامازوف تعد في رأى النقاد أعظم ما كتب دستويشسكى وأدله على نفاذ بصيرته ، وتوقد قريحته ، وهى معرض مزدحم بصنوف الدراسات النفسية والخواطر الفلسفية ، يقول عنها العلامة النفسى فرويد في الفصل القيم الذى كتبه عن «دستويشسكى وجريمة قتل الوالد» «الإخوة كارامازوف هى أعظم رواية كتبت ، وقصة كبير المحققين في محكمة التفتيش الواردة بها إحدى القمم الشامخات في الأدب العالمى وقل أن تستطيع المبالغة في مدحها . . . ولا يمكن أن يكون من قبيل المصادفة أن تدور حوادث ثلاث روايات من الطرف الأدبية الباقية على الدهر حول

جرمة قتل الوالد ، وهى الملك أوديب وهملت والإخوة كارامازوف » .

وقد بدأ دستويشسكى ينشر هذه الرواية مسلسلة فى صيف سنة ١٨٧٨ . وظهرت كاملة فى كتاب سنة ١٨٨٠ ولكن بعض موضوعاتها كانت تشغل بال دستويشسكى منذ سنة ١٨٧٠ فقد كتب فى تلك السنة إلى صديق له يقول إنه ينوى كتابة رواية عن مرتكب الخطيئة الكبير فى خمسة أجزاء ، وأمكن بعد الاطلاع على مذكرات دستويشسكى الموجودة فى إداة المحفوظات الروسية معرفة أن عدداً من الشخصيات التى كانت ستظهر فى هذا الكتاب الضخم الذى كان يهدف إلى كتابته قد ظهر فى رواية « الممسوس » ورواية « الشاب الخالم » ورواية « الإخوة كارامازوف » ، وموضوع رواية « المالحد » وهى إحدى الروايات التى لم يكتبها يبدو كذلك فى تفكير إيفان كارامازوف — أحد الشخصيات البارزة فى رواية « الإخوة كارامازوف » — عن وجود الله ، وكان دستويشسكى ينوى أن يسترسل فى سرد مغامرات اليوشا — أحد الأخوة — وما عرض له من صنوف الغواية ولكن موته حال دون ذلك .

وقد رمى دستويشسكى بهذه الرواية إلى مقاومة المادية الفلسفية ، وفقدان العقيدة والأفكار الأوروبية عن العلم ، التى طغت على عقول الشبان الروسين فى عهده ، كتب إلى أحد أصدقائه يقول « يحاول الناس بكل ما أوتوا من جهد إنكار الخلق المقدس وملكوته الله ومعناه » وفيدوركارامازوف والد الإخوة الذين يحملون هذا الاسم وولده إيفان وابنه غير الشرعى سمردياكوف يمثلون نزعة إنكار وجود الله والمادية الغالبة .

وتبدأ الرواية بالصراع بين الأب العجوز وابنه ديمترى على امتلاك جروشنيكا والاستئثار بها ، ويسفر هذا الصراع عن قتل الأب الذى قام به أحد أبنائه ، فن منهم القاتل ؟ وقارئ هذه الرواية ينتقل فى ثلاث

مستويات ، وهى مستوى حياة أسرة كارامازوف ، ومستوى لغز حادث قتل الوالد ومستوى التفكير الفلسفى الذى تضمنته الرواية .

والابن الأكبر ديمترى يمثل الاسترسال مع الرغبات الجاححة والشهوات المنطلقة بغير عنان وعدم القدرة على السيطرة على النفس ، وأخوه إيفان يمثل كبرياء المعترين بالعلم والذين فقدوا بقيتهم الدينى وعذبت نفوسهم الشكوك ، واليوشا أصغر الإخوة يمثل النزعة الدينية ، ويصل دستويشسكى إلى قمة الإجادة الفنية فى تصويره لرأس الأسرة فيدوركارامازوف ، فهو رجل تتمثل فيه القوى الشيطانية ، وهو يريد كثير العورات والخسائس غارق إلى أذنيه فى الشهوات والوضيعة والأعمال المستنكرة ولا يحاول إخفاء فجوره ودعارته ، بل يحاول أن يعلنها ويفخر بهما ، ولا يصده ضمير عن ارتكاب الموبقات والإمعان فى ذلك ، وقد وصلت فيه النفس الإنسانية إلى أعماق منحدرات السقوط والتسفل والقرغ فى الأقدار والأحوال ، وقد نتقص أعماله ونستفزع أقواله ، ولكن لا يسعنا مع ذلك كله إلا نعجب من فرط قوة حيويته وشدة تغلغل جذوره فى الأرض ، ودستويشسكى يدينه باعتباره مذنباً ولكن فى اكتفاء هذا الرجل العريبد المهرج بنفسه قوة غريبة الشأن .

وقد أجاد كذلك دستويشسكى تصوير شخصية سمردياكوف وهو ابن فيدور غير الشرعى من الخادمة البلهاء الفتاة ليزافيتا .

ويحاول الأخ الأكبر ، ديمترى التكفير عن أهوائه الجاححة بمعاناة الشقاء واستهداف الآلام ، وقد كان دستويشسكى شديد التعلق بفكرة أن الشقاء هو خير مطهر للنفس من أدران الآثام والذنوب . ومما يروى عنه أنه فى ذات يوم قدم له أحد أصدقائه شاباً تبشر مخايله بأنه سيكون له شأن فى المستقبل ، ودار الحديث عن كتب دستويشسكى وآماله فى مستقبل روسيا والحياة بوجه عام ، وترك هذا الشاب انطباعاً حسناً فى نفس

دستويفسكى ، ولما انصرف الشاب سأل صديقه قائلاً « ما رأيك في هذا الشاب ؟ » .

فركز دستويفسكى عينيه في صديقه وأجابه في هدوء « أتعرف ما ينقص هذا الشاب ؟ إنه في حاجة إلى أن يعيش ثلاث عشرة سنة في سيبيريا ، وهذا ما يعين على تكوينه » .

وهذه وجهة نظر دستويفسكى ، فالألم عنده هو الذى يجلو جوهر النفس ويبرز حقيقتها .

وربما أخذ على دستويفسكى بعض قرائه ولوعه بتصوير الشخصيات الشاذة ، والطبائع المنتكسة ، وكثرة المرضى والمجرمين التى تعج بها رواياته ، وحتى قصصه القصيرة وأقصوصاته ، ويرجع جانب من أسباب ذلك إلى مخالطته الأشرار والمطبوعين على الإجرام في سجون سيبيريا ، وكان هو نفسه مريضاً ، وهو يواجه الشر ولا يغمض دونه الطرف أو يغالط نفسه في حقيقته ، ولكنه مع ذلك يتتبع آثار العناية الإلهية ، ويرى بقايا النور خلال الظلام الحالك ، وكيف تنفوح رائحة أزاهر الخير بين أشواك الشرور الطاغية الملتفة ، وحقيقة أن كثيراً من الشخصيات التى يعرضها على أبصارنا ويحلل دوافعها من حثالة البشر ، ونفائيات الإنسانية ، ولكن الكتاب الكبار حينما يتعرضون لكشف مغامرات الإنسانية ، ويصفون تجاربها المرة ، لا يختارون شخصيات من الطراز العادى المألوف ، وإنما يعرضون علينا شخصيات من طراز هملت ودون كيشوت والملك لير ، ويحاول دستويفسكى أن يواجه الشر ليستخرج من ثناياه الخير ، فكتبه برغم ما فيها من المأسى الدامية المحزنة تحمل مع ذلك إلى الإنسانية رسالة الأمل .

وكان الذى تولى قتل فيدور كارامازوف هو ابنه غير الشرعى المختل الشعور الناقص العقل سمردياكوف ولم تحسر الدنيا شيئاً بمصرع هذا الشرير الداعر الذى لا خير فيه ولا فائدة للإنسانية من وجوده ، ولكن

عقل ابنه ديمتري الذى كان يبرر الجريمة ، يجد معارضة شديدة من ضميره الذى يعنفه أشد تعنيف ، لأنه أراد أن يقتل أباه ويتخلص منه ، وانتوى ذلك ، ولكنه قصر عنه ، ولذلك حاول أن يوجه الاتهام إلى نفسه ، ويلقى تبعة الجريمة على عاتقه ، لأنه أوحى إلى سمردياكوف فكرة القتل ، وقد شق سمردياكوف نفسه قبل كشف الجريمة والانتفاء من التحقيق .

وأليوشا الابن الأصغر اتجه اتجهاً دينياً ، وهو مثل بوذا في الأساطير المعزوة إليه يخرج من العزلة ليعيش في الدنيا ويرشد الحائرين في سبيل الحياة ويربهم طريق الخلاص ، وهو بحكم وراثته تجرئ في عروقه دماء أسرة كارامازوف ولكنه تغلب على نوازع الشر الذى في نفسه وآثر الاتجاه الدينى الإنسانى ، وقد تأثر في اختياره لهذا السبيل بشخصية بارزة في الرواية وهى شخصية زوسيا الراهب الذى كان يعيش في الصومعة ومن النصائح التى وجهها الأب زوسيا إلى تلميذه أليوشا قوله له « لا تقم من نفسك قاضاً لإصدار الأحكام على الناس ، والحب الخاشع المتواضع قوة رهيبه أقوى تأثيراً من العنف ، والحب الناشط الفعال هو الذى يجلب الإيمان ، فحب الناس ولا تخش ما يقترفون من الآثام ، وحب كل مخلوقات الله وارج الله أن يجعلك باشاً مستبشراً ، وكن مرحاً كالأطفال والطيور » .

ومن أقواله لأليوشا التى تكشف لنا عن بعض اتجاهات دستويفسكى نفسه قوله « سيحل بك الكثير من نوائب الدهر ، ولكن هذه النكبات ستكون السبيل لاسعادك وإشعار قلبك السرور وستبارك من أجلها الحياة ، وتجعل غيرك من الناس يباركونها » .

وقد صاغ دستويفسكى شخصية الأب زوسيا على مثال راهب لقيه في دير أوتين حينما زار هذا الدير في صحبة الفيلسوف الروسى الشاب فلاديمير سولوفيف ، ودارت بينهما أحاديث دينية خلال الزيارة تركت أثرها في نفسه .

وتتناول الرواية مشكلة العلاقة بين الخير والشر وبين الضرورة والحرية . وفي إحدى فصول الرواية وعنوانه « الغارق في الشهوات » يصف لنا دستويشسكى جانباً من الصراع بين فيدوركارامازوف وابنه ديمتري المفتون بجروشكا ، والتي ينازعه فيها أبوه ، ويقول دستويشسكى « جرى جريجورى وسمردياكوف إلى الحجرة خلف ديمتري ، وكانا يتشاجران معه في الممر رافضين أن يسمحا له بالدخول وذلك عملاً بالأوامر التي تلقاها من فيدوركارامازوف قبل ذلك بأيام ، واغتم جريجورى فرصة وقوف ديمتري لحظة عند دخوله إلى الحجرة لبحث عنه ، وجرى حول المائدة وقفل البابين المزدوجين على جانبي الحجرة اللذين يؤديان إلى الحجرات الداخلية ووقف حيال البابين المغلقين ماداً ذراعيه متأهباً للدفاع عن المدخل إلى آخر قطرة من دمه ولما رأى ديمتري ذلك أطلق صرخة وهجم على جريجورى

« إذن هي هنا ! إنها مخبأة هناك ! افسح لى الطريق أيها الوغد ! »

وحاول أن يجتذب جريجورى بعيداً ، ولكن الخادم المسن دفعه إلى وراء ، فاستشاط ديمتري غضباً وهجم على جريجورى وضربه بكل قوته ، فسقط الرجل المسن كما تسقط كتلة من الخشب ، ووثب ديمتري فوقه واقتحم الباب ، وشحب وجه سمردياكوف وأخذ يرتعش ، وهو واقف في طرف الحجرة الآخر على مقربة من فيدوركارامازوف وقد ارتبك واختلط عليه أمره .

وصاح ديمتري قائلاً « إنها هنا ! لقد رأيتهما في التوالحة لحظة متجهة إلى المنزل ، ولكنى لم أستطع القبض عليهما ، فأين ؟ أين هي ؟ » .

وصيحته « إنها هنا » كان لها تأثير في نفس فيدور بافلوفتش كارامازوف لا يمكن وصفه ، فقد ذهب عنه كل ما تولاه من الخوف .

وصاح مندفعاً خلف ديمتري « امسكوا به ! اقبضوا عليه ! » .

وفي أثناء ذلك قام جريجورى من أرضية الحجرة ولكنه كان لا يزال يبدو مذهولاً ، وجرى إيثنان واليوشا خلف والدهما ، وسمع في الحجرة الثالثة صوت سقوط شيء أحدث رنيناً ، وكان ذلك زهرية كبيرة ولكنها ليست غالية الثمن على ركيزة من الممر ، وقد قلبها ديمتري وهو يجرى إلى جانبها .

وصاح الرجل العجوز « وراءه ! النجدة ! » . فأمسك إيثنان واليوشا بالرجل العجوز ، وكانا يحاولان إرغامه على العودة إلى مكانه .

وصاح إيثنان في وجه أبيه غاضباً « لماذا تجرى وراءه ؟ إنه سيقتلك في الحال » .

« إيثنان ! اليوشا ! لا بد أنها هنا ، جروشكا هنا ، لقد قال إنه رآها بنفسه وهي تجرى » .

كان يكاد يغص بريقه ، ولم يكن ينتظر جروشكا في ذلك الوقت ، والأخبار المفاجئة بأنها في المنزل أخرجه عن طوره ، فكان يرتعش غضباً ويبدو فاقد الصواب .

فصاح إيثنان قائلاً « ولكنك رأيت بنفسك أنها لم تأت إلى هنا » .

« ولكن يمكن أن تكون قد جاءت من المدخل الآخر » .

« ولكنك تعرف أن ذلك المدخل الآخر مقفل ومفتاحه معك » .

وظهر ديمتري فجأة في قاعة الاستقبال ، وبطبيعة الحال وجد الباب الآخر مقفلاً ، والواقع أن مفتاحه كان في جيب فيدور بافلوفتش ، وكانت نوافذ الحجرات جميعها مقفلة ولذلك لم يكن هناك سبيل لحجى جروشكا إلى أى مكان في المنزل ولا لخروجها إلى أى مكان منه .

وحينما رآه فيدور بافلوفتش ثانية صاح قائلاً

« امسكوا به ! إنه كان يسرق النقود في مخدعي »
وانتزع نفسه من إيقان معاوداً المعجوز على ديمتري ،
ولكن ديمتري لوح بيديه ، وفجأة أمسك بالرجل
العجوز من خصلتي الشعر الباقيتين في صدغيه وشدهما
بعنف ، وطرحه على الأرض ، وأحدث صوت وقوعه
ضججة ، وركله مرتين أو ثلاث مرات بكعبه في وجهه ،
فتأوه العجوز بصوت حاد ، وبالرغم من أن إيقان
لم تكن له قوة ديمتري الجسدية فقد ألقي ذراعيه حوله ،
وجذبه بكل قوته ، وساعده اليوشا بقوته الواهنة بأن
أمسك بديمتري من الأمام

وصاح به إيقان قائلاً « أيها المخنون ! لقد قتلتني » .
فصاح ديمتري لاهث الأنفاس « هذا ما يستحقه !
وإذا لم أكن قد قتلتني فاني سأعود ثانية لأقتله ، ولن
تستطيع حمايته ! » .
فصاح به أليوشا بلهجة الأمر « ديمتري ! انصرف
من هنا فوراً » .

« اليكسي ! خبرني ، إني لا أصدق غيرك ، هل
كانت هنا في هذه اللحظات أولاً ؟ لقد رأيتهما بعيني وهي
تزحف من هذا الطريق ، بجانب الحاجز من الحارة ،
ولما صحت بها ولت هاربة » .
« أقسم أنها لم تكن هنا ، ولم يكن أحد ينتظر
قدومها » .

« ولكن رأيتها ... فلا بد أنها كانت هنا ...
سأعرف فوراً أين هي ... أستودعك الله يا الكسي !
لا تقل كلمة واحدة لأيسوب عن النقود الآن ، ولكن
أذهب إلى كاترينا لإيقانوثنا من فورك ولا تردد في أن
تقول لها « إنه يرسل إليك تحياته ! » ، تحيات ، تحياته
ولا شيء غير التحيات والوداع ، وصف لها ما شاهدته »
وفي أثناء ذلك رفع إيقان وجريجوى الرجل العجوز
وأجلساه على كرسي له تكأة ، وكان وجهه ملطخاً
بالدماء ، ولكن لم يكن فاقد الوعي ، وكان يستمع في
فرط اهتمام إلى صيحات ديمتري ، ولا يزال يتوهم أن

جروشينكا موجودة في مكان ما بالمنزل ، ونظر إليه
ديمتري نظرة تنطوي على الكراهة الشديدة وهو
خارج .

وصاح قائلاً « لا أندم على إراقة دمك ! فاحذر
أيها العجوز ، وحذار من أحلامك فإن عندى كذلك
أحلاماً ، وإني ألعنك وأتبرأ منك كل التبرؤ » .
وانطلق يجرى من الحجرة .

فنشج العجوز قائلاً وهو لا يكاد يبين « إنها هنا ،
لا بد أنها هنا يا سمردياكوف ! » وكان يشير
بإصبعه .

فصاح به إيقان غاضباً « كلا ، إنها ليست هنا أيها
العجوز المخنون ! ها هو يغمى عليه ! اسرع
يا سمردياكوف باحضار الماء ومنشفة ! »

وأسرع سمردياكوف ليحضر الماء ، وخلعا
ملابس الرجل العجوز ووضعاه في الفراش ، وبللا
المنشفة حول رأسه ، وكان قد أنهكه ما احتساه من
الشراب وما تلقاه من الضربات فأغمض عينيه واستغرق
في النوم حالماً وضع رأسه على الوسادة ، وعاد إيقان
واليوشا إلى غرفة الاستقبال ، وأزال سمردياكوف
بقايا الزهرية المكسورة ، ووقف جريجورى إلى جانب
المائدة ينظر إلى أرضية الغرفة في أسى واكتئاب .

وخاطبه اليوشا قائلاً « ألا تضع ضمادة مبتلة حول
رأسك وتأوى إلى الفراش كذلك ؟ إننا سنغنى به ، لقد
لطمك أخى لطمة شديدة على رأسك » .

فقال جريجورى في وضوح وهو حزين « لقد
أهانى ! » .

فعلق إيقان على ذلك بابتسامة مغتصبة قائلاً « لقد
أهان أباه » .

فعاد جريجورى يقول « لقد كنت أغسل له جسده
في الدن وقد أهاننى » .

فهمس إيقان لأليوشا قائلاً « لعنة الله على كل
ما حدث ، لو لم أجذبه بعيداً لكان قد قضى عليه ،

ولم انه ليهن عليه القيام بذلك من أجل عيسوب أليس كذلك ؟ » .

فأجابه اليوشا صائحاً « لا سمح الله ! » .

فاسترسل إيقان في همسه قائلاً « ولماذا لا يسمح »

وقطب وجهه في خبث وأتم حديثه قائلاً

« أفعى تبئلع أفعى ، وكلاهما يستحق ما ينزل به »

فأبدى أليوشا اشمزازه .

« بطبيعة الحال إني لا أتركه يقتل كما فعلت توأ ،

فانتظر هنا يا اليوشا ، إني سأذهب لأقوم بجولة في الساحة فقد بدأت أشعر بصداق في رأسي » .

فذهب اليوشا إلى مخدع والده ، وجلس إلى جانب

فراشه خلف الستار قرابة ساعة ، وفتح الرجل العجوز

عينيه فجأة ، ونظر طويلاً إلى اليوشا ، وكان واضحاً

أنه يتذكر ويتأمل ، وسرعان ما نم وجهه على الانفعال

الشديد .

وهمس في خوف « أين إيقان ؟ » .

« إنه في الساحة ، لقد أصابه صداق ، وهو قائم

بالمراقبة » .

« أعطني المرأة ، إنها موضوعة هنالك ، أعطني

إياها » .

فأعطاه أليوشا مرآة صغيرة مستديرة كانت

موضوعة على صوان الثياب ، فنظر إلى وجهه فيها ،

وكان أنفه متورماً ورماً شديداً وعلى الجانب الأيسر من

جبهته كدم كبير قرمزي .

« ماذا يقول إيقان يا عزيزي اليوشا ويا ابني

الوحيد ، إني خائف من إيقان ، إن خوفي من إيقان

أكثر من خوفي من الآخر ، أنت الوحيد الذي لا أخشى

منه شراً . . . » .

« لا تخف من إيقان كذلك ، إنه غاضب ولكنه

سيدافع عنك » .

« وماذا فعل الآخر يا اليوشا ؟ وهل جرى وراء

جروشكا ؟ قل لي الحقيقة يا ملاكي وهل كانت هنا

توأ أو لا ؟

« لم يرها أحد ، لقد كان ذلك من قبيل الخطأ ،

لإنها لم تحضر إلى هنا » .

« أنت تعرف أن متيا يريد أن يتزوجها ، أن

يتزوجها » .

« إنها لن تتزوجه » .

« إنها لن تتزوجه ، لن تتزوجه ، ولن تتزوجه

بأى حال من الأحوال ! » .

واهتز الرجل العجوز سروراً وارتياحاً كأنما كان

لا شيء يبعث على إدخال الفرح على نفسه وإشعاره

بالارتياح أكثر من هذا القول ، وفي غمرة السرور

ونشوته أمسك بيد أليوشا وضغط عليها بحرارة واضعاً

إياها على قلبه ، والتفت الدموع في عينيه .

« خذ تمثال العذراء الذي كنت أحدثك عنه منذ

لحظات واحمله إلى منزلك واحتفظ به لنفسك ،

وسأدعك تعود إلى الدير ، ولقد كنت أهزل في هذا

الصباح فلا تغضب مني يا أليوشا ، إني أشعر بصداق

في رأسي ، فأرح قلبي يا أليوشا وكن ملاكاً وقل لي

الحق ! » .

فقال أليوشا في حزن « لا تزال تسأل هل كانت

هنا أو لا ؟ » .

« لا ، لا ، إني مصدقك ، سأخبرك بما في الأمر ،

اذهب إلى جروشكا بنفسك أو ابحث عنها في مكان ما ،

وأسرع وسلها ، وانظر بنفسك من تختاره ، هو أو أنا ؟

ماذا ؟ أنتستطيع ذلك ؟ » .

فتمتم أليوشا قائلاً وقد ارتبك « لو رأيتهما لسألتهما » .

فقاطعه الرجل العجوز قائلاً « إنها لن تخبرك ، فهي

خبينة ماهرة ، وستبدأ بتقبيلك وتقول لك إنك أنت

بغيتها ، وهي مخادعة شيمتها الغدر وفاجرة ، فلا تذهبن

إليها ، لا تذهبن » .

« لا يا أبي ، إنه غير لائق ، وليس من الصواب

في شيء » .

« وإلى أين كان يريد أن يرسلك توأ ؟ فقد كان

يصيح قائلاً وهو منطلق « اذهب »

« إلى كاترينا إيفانوفنا » .

« من أجل النقود ؟ لتطلب منها نقوداً ؟ » .

« لا ، لم يكن ذلك من أجل طلب النقود » .

« ليس عنده نقود ، ولا أقل من القليل ، وسأستقر

طوال الليل وأروى في الأمر ، ويسعك أن تذهب ،

وربما تلقاها . . . وأكد لي مجيئك إلى في صباح الغد

أكد ذلك ، فعندى ما أقوله لك غداً ، هل تجيئ ؟ » .

« نعم » .

« حينما تحضر ادع أنك جئت بدافع رغبتك في

السؤال عني ، ولا تذكر لأى إنسان ما قلته لك ، لا

تقل عنه كلمة واحدة لإيقان » .

« حسن جداً » .

« صحبتك السلامة يا ملاكى ، لقد وقفت إلى

جانبي اليوم ، ولن أنسى لك هذا ، وعندى ما سأقوله

لك غداً ، ولكن لا بد لي من التفكير فيه » .

« وكيف حالك الآن ؟ » .

« سأنهض غداً من الفراش ، وأخرج سليماً معافى »

وبينما كان أليوشا يعبر الساحة وجد إيقان جالساً

على مقعد عند المدخل ، وكان مشغولاً بكتابة شيء في

مذكرته بالقلم الرصاص ، وأخبر أليوشا إيقان أن أباه

قد استيقظ ، وسمح له بالعودة إلى الدير لينام به .

فوقف إيقان وقال بلهجة ودية « يسرنى أن ألقاك

غداً » .

فقال أليوشا « سأكون عند أسرة هوهلاكوف غداً

وقد أكون عند كاترينا إيفانوفنا كذلك إذا لم أجدها

الآن » .

فقال إيقان وقد علت وجهه بسمه « ولكنك ذاهب

إليها الآن مهما يكن من الأمر ، فشكراً لك ووداعاً »

فارتبك أليوشا .

« أحسبني أفهم الآن سبب صيحاته وجانباً مما حدث

قبل ذلك وقد سألك ديمتري الذهاب إليها وأن تقول

لها - وهذا هو الواقع - إنه يودعها ؟ » .

فأجابه أليوشا قائلاً « كيف ينتهى يا أخى هذا

الحلاف الفظيع بين الوالد وديمتري ؟ » .

« لا يستطيع أحد أن يعرف على وجه التأكيد ،

فقد ينتهى إلى لا شيء وقد يسفر عن نتيجة سخيفة ،

وهذه المرأة كالوحش ، ومهما يكن من الأمر فإن

علينا أن نستبقى الرجل العجوز في داخل المنزل ، ولا

ندع ديمتري يدخل إليه » .

« أسمح لي يا أخى أن أسألك شيئاً أكثر من ذلك ،

فهل من حق أى إنسان أن ينظر إلى الناس ويحكم أيهم

جدير بأن يعيش ؟ » .

« ولماذا تدخل مسألة الجدارة ؟ إن المسألة بيت فيها

بقلوب الناس على أسس أخرى أقرب إلى الطبيعة ،

أما من ناحية الحقوق فمن له الحق في أن يريد ؟ » .

« لا من أجل موت إنسان آخر ؟ » .

« وماذا لو كان من أجل موت إنسان آخر ؟

ولماذا يكذب الإنسان على نفسه ما دامت الناس جميعاً

تعيش هكذا ، وربما ليس في استطاعتهم أن يكونوا غير

ذلك ، أترأى تشير إلى ما قلته توأ - وهو أن أفعى تبتلع

أفعى ؟ وفي هذه الحالة دعنى أسألك أظننى مثل

ديمتري قادراً على إراقة دم عيسوب وقتله ؟ » .

« ماذا تقول يا إيقان ؟ إن مثل هذه الفكرة لم تخطر

لي قط ببال ، ولا أظن ديمتري أهلاً لذلك كذلك » .

فابتسم إيقان وقال « شكراً لك ولو على ذلك

وحده ، وكن واثقاً من أنى سأدافع عنه دائماً ، ولكن

في صميم رغباتى سأحتفظ لنفسى بحرية التفكير كاملة

في هذه الحالة ، فصحبتك السلامة إلى الغد ، فلا تلنى

ولا تلحقنى بالأوغاد » .

وتصافحاً بحرارة لم يكن لهما بها سابق عهد ، وشعر

أليوشا بأن أخاه قد خطا الخطوة الأولى للاقتراب منه ،

وأنه من المؤكد لم يفعل ذلك إلا مدفوعاً بباعث محدد »

وقد فصل لنا دستويفسكى في هذا الفصل جانباً من

الخلاف الذى وقع بين الأب العجوز والابن الشاب ،
كما كشف لنا بعض نواحي نفسية الابن الثانى إيقان
وموقف الابن الأصغر أليوشا ونزعتة الدينية ، وفى
الفصل الثانى من الجزء الثانى من الرواية يدع
دستويفسكى فيدور كارامازوف يكشف لنا نفسه فى
حديثه مع ابنة أليوشا عن ابنه الآخر فهو يقول لأليوشا
« إنه لم يسألنى نقوداً ، وهذا حق ، ولكنه لم يحصل منى
على شيء ، فقد اعتزمت أن أعيش أطول زمن ممكن ،
ومن ثم ترانى يا أليوشا فى حاجة إلى كل ملهم ، وكما
عشت زمناً أطول كانت حاجتى إلى المال أكثر » وظل
يذرع أرض الحجر من ركن إلى آخر ويدها فى جيبيه
« ما أزال أعد فى الخامسة بعد الخمسين ، ولكنى أريد
أن أعد كذلك مدة عشرين سنة أخرى ، وكما أمعنت
فى الشيخوخة صرت كما تعلم شيئاً مقبولا ، فلن تقبل
على المومسات من تلقاء أنفسهن ، ولذلك سأكون فى
حاجة إلى مالى ، ولذلك ترانى أكثر من ادخار المال
لأحتفظ به لنفسى يا عزيزى أليوشا ، ويمكن أن تعرف
ذلك ، لأنى أريد أن أنطلق فى طريق الآثام إلى نهاية
الشوط ، وذلك لأنى أستعذب الإثم ، والناس جميعهم
يذمونه ، ولكنهم جميعهم يعيشون فى الإثم ، وغاية
ما فى الأمر أن الآخرين يقترفون الإثم خفية وأنا أقترفه
جهاراً نهائياً ولذلك ينقض على جميع الآثمين الآخرين
لكونى يمثل هذه البساطة ، وجنتك يا أليوشا لا تلائم
ذوقى ، وأنا أصارحك بذلك ، وليست هى بالمكان
المناسب للسيد الغطريف هذه الجنة حتى لو كانت
موجودة ، واعتقادى أننى أنا من أستيقظ من نومى
ثانية ، ويمكنك أن تصلى من أجل روحى إذا أردت ،
وإذا لم ترد ذلك فلا تلغها ! هذه هى فلسفتى ، ولقد
أحسن الحديث إيقان هنا أمس ولو أننا كنا جميعاً
سكارى ، وإيقان مغرور معجب بنفسه ، ولكن ليس
له حظ من المعرفة ولا من التعليم ، وهو يجلس صامتاً

ويتسم للإنسان دون أن يتحدث - وهذا هو
ما يخلصه » .
وفى إحدى المناقشات التى دارت بين أليوشا وأخيه
يقول إيقان لأخيه « عندى أن الحب الذى يشبه حب
المسيح للناس معجزة مستحيلة الحصول فى الأرض ،
لقد كان الهأ ، ولكننا لسنا آلهة ، وافرض مثلاً أننى
أعانى الشقاء وأكابد الألم ، فالغير لا يستطيع أن يعرف
أبداً مدى ما أقاسيه لأنه إنسان آخر وليس إياى ،
وأكثر من ذلك أنه ينذر أن يكون الإنسان مستعداً
للتسليم بشقاء الغير (كأن هذا الشقاء نوع من الامتياز)
أتعرف لماذا لا يريد أن يسلم بذلك ؟ لأنى لست طيب
الرائحة أو لأن لى وجهها يبدو فيه الغباء أو لأنى قد دست
على قدمه ، وعلاوة على ذلك فإن هناك ألواناً مختلفة من
الشقاء ، هناك الشقاء المذل مثل الجوع ، ولكن حينما
نصل إلى الشقاء الأسمى - مثل الشقاء من أجل فكرة -
فإن الغير ينذر أن يسلم به ربما لأن يتوهم أن وجهى فى
رأيه لا يشبه وجه الرجل الذى يشقى من أجل فكرة ،
ولذلك يحرمنى فى الحال من عطفه وليس ذلك من فساد
قلبه ورداءة نفسه ، وعلى المتسولين أن لا يظهروا
أنفسهم ويكتفوا بطلب الإحسان عن طريق الجرائد ،
والإنسان يستطيع أن يحب جاره حباً معنوياً مجرداً أو
حتى من بعيد ولكن هذا الحب مستحيل مع الاقتراب .
ويكفى هذا فقد أردت أن أطلعك على وجهة نظرى » .
وهو فى هذا الحديث يرينا وجهة نظر إيقان
المناقضة لوجهة نظر أليوشا المستمسك بالآداب المسيحية
والتأثر بآراء الأب زوسما .
وفى مناقشة أخرى يقول إيقان لأخيه أليوشا « تخيل
نفسك قائماً تخلق مصير الإنسان ، وأن هدفك أن تجعل
الإنسان سعيداً ، وأن تمنحه فى النهاية الطمأنينة والراحة ،
ولكن كان الأمر يستلزم أن تعذب حتى الموت مخلوقاً
ضئيلاً ، ولم يكن هناك معدى عن ذلك ، فهل توافق
أن تكون منشئ الوجود الإنسانى على هذا الشرط ؟ » .

ويجيبه أخوه أليوشا « كلا إني لن أقبل ذلك » .
فبرد إيثان قائلا « وهل تستطيع أن تسلم بفكرة
أن الناس الذين تخلق من أجلهم الكون يوافقون على أن
تكون سعادتهم قائمة على أساس دماء الضحية الصغيرة ؟
وأهم يظلون سعداء إلى الأبد بعد قبول ذلك ؟ »

وفي الفصل الخاص بكبير قضاة محكمة التفتيش
يجعل دستويفسكى هذا القاضي الكبير يخاطب السيد
المسيح قائلا « إن الإنسان بطبيعته أضعف وأخطأ مما
اعتقدت ! فهل في استطاعته أن يصنع ما صنعت ؟ إنك
باحترامك الكبير للإنسان طلبت منه الكثير ، ولقد
أحببته أكثر مما أحببت نفسك ، ولو أنك قللت احترامك
له لسألته أقل مما سألت ، ولكان هذا أقرب إلى الحب
لأن العبء في هذه الحالة سيكون أخف حملا » .

وفي فصل عنوانه « سيدة ضعيفة الاعتقاد » يذكر
لنا دستويفسكى محادثة بين الأب زوسيا والسيدة المشار
إليها ، وكان أليوشا حاضر تلك المحادثة .

يقول الأب زوسيا مخاطباً السيدة التي تقدمت
ابنتها في سبيل الشفاء بتأثيره الروحي (الشعور بالراحة
ليس الشفاء الكامل ، وقد يجيئ من أسباب مختلفة ،
ولكن إذا كان هناك أى برء فهو من إرادة الله ، وكله
من الله ») والتفت إلى أحد الرهبان الذين جاءوا لزيارته
والتزود من نفحاته الروحية وقال له « إني لا أرى
الزائرين إلا في الفينة بعد الفينة ، وإني أعاني المرض
وأعرف أن آياي معدودة » .

فصاحت السيدة قائلة « لا . لا . لن يأخذك الله
منا ، ستعيش طويلا ، أمامك زمن طويل ، وم
تشكو ؟ يبدو لي أن صحتك جيدة وأنتك مستبشر
سعيد » .

« إن حالي اليوم حسنة بصورة تفوق المؤلف ،
ولكني أعلم أن هذا التحسن لن يظل طويلا ، وأنا خبير
بالمرض الذي أعانيه ، فإذا كنت أبدو لك سعيداً فلن
يكون في وسعك أن تحدثنني بشيء أبعث على ارتياحي

من ذلك القول ، لأن الإنسان قد خلق للسعادة ، وأى
إنسان سعيد سعادة تامة من حقه أن يقول لنفسه « إني
أنفذ إرادة الله على الأرض » وجميع الصالحين الأبرار
والقديسين والشهداء الأطهار كانوا سعداء » .

فصاحت السيدة قائلة « كيف تقول ذلك ! إنها
كلمات جريئة وسامية ! ، ويبدو أنك تنفذ إلى أعماق
القلوب بكلماتك ، ومع ذلك فأين السعادة ؟ أين هي ؟
ومن ذا الذي يستطيع أن يقول عن نفسه إنه سعيد ؟
وما دمت قد سمحت لنا بأن نراك مرة أخرى اليوم
فدعني أفضي إليك بما لم أستطع أن أنطق به في المرة
الأخيرة ، ما لم أجترئ على قوله ، ولقد شقيت به
طويلا ، إني أعاني الشقاء فاغفر لي ، إني أعاني الشقاء ! »
وفي غمرة من حماسة الشعور ضمت يديها بعضهما
إلى بعض أمامه .

« مما تشقين بوجه خاص ؟ » .

« أشقى . . . من ضعف اليقين » .

« ضعف اليقين بالله ؟ »

« كلا ، كلا ، إني لا أجترئ حتى على التفكير
في ذلك ، ولكن الحياة الأخرى - إنها لغز محير ! ولا
أحد ، لا أحد يستطيع أن يحل هذا اللغز ، فاستمع لي !
إنك تشفى النفوس ، ولك خبرة واسعة بالروح
الإنسانية ، وبطبيعة الحال لا أجسر على أن أنتظر منك
أن تصدق حديثي بخذافيره ، ولكني أؤكد لك بشرفي
إني جادة فيما أقول ، إن فكرة الحياة وراء القبر تحيرني
وتذهلني إلى حد الألم وإثارة الرعب ، ولست أدري
لمن ألبأ ، ولم أقدم على ذلك طوال حياتي ، ولكني
الآن أجسر على سؤالك ، فبالله ! ماذا تظن بي الآن ؟ »
وضمت يديها بعضهما إلى بعض .

فقال لها زوسيا « لا تكربك معرفة رأيي عنك ،
إني أعتقد أنك مخلصه فيما تعانين من شقاء » .

« إني أشكرك شكراً جزيلاً ! وأنت ترى أنني
أغمض عيني وأسأل نفسي إذا كان أى إنسان عنده

يقين فمن أين أتاه هذا اليقين ؟ وحينئذ يقولون إنه جميعه يأتي من الخوف تلقاء مظهر الطبيعة الذى يتهددنا ، وإنه لا نصيب له من الحقيقة ، وأقول لنفسى « ماذا لو كنت مؤمنة طوال حياتى وحينما يمضى بى الموت لا يكون هناك سوى الأشواق النامية فوق قبرى » كما قرأت لأحد المؤلفين ، إنه شئ فظيع ، فكيف أستطيع استرداد يقينى ؟ لقد اعتقدت حينما كنت طفلة صغيرة اعتقاداً آلياً بدون تفكير فى أى شئ ، فكيف ، كيف يثبت الإنسان هذا الاعتقاد ؟ لقد جئت لأضع روحى أمامك وأسألك عنها ، ولو أنى تركت هذه الفرصه تفلت منى فلن يستطيع أحد طوال حياتى أن يجيبنى ، فكيف أثبت هذا اليقين ؟ وكيف أقنع نفسى ؟ آه ما أشقانى ! إنى أقف وأنظر حولى وأرى أنه قل من يعنيه ذلك ، ولا أحد يتعب باله بالتفكير فى ذلك ، وأنا وحدى التى لا تطبق هذا الموقف ، إنه شئ مميت مهلك ! » .

« من غير شك ، ولكن لا سبيل إلى إثباته ولو أنه من الممكن أن تقتنعى به » .
« كيف ؟ » .

« عن طريق تجربة الحب الفعال ، فحاولى أن تحبى جيرانك حباً فعالاً لا بمسه لغوب ، وكلما تقدمت فى طريق الحب ازداد تأكدك من حقيقة الله وخلود روحك ، وإذا وصلت إلى نسيان النفس الكامل فى حبك لجيرانك فإنك ستؤمنين إيماناً لا يشوبه شك ولا يستطيع الشك أن يتسرب إلى نفسك ، وقد جرب ذلك ، وهو مؤكد » .

« فى الحب الفعال ؟ ان هناك مسألة أخرى — وأية مسألة ! أرجو أن تصدقنى إذا قلت لك إن حبي للإنسانية قد وصل إلى حد أنى أحلم دائماً بأن أنزل عن كل ما أملك لها وأترك ابنتى ليز ، وأنظم فى سلك أخوات الرحمة ، وفى تلك اللحظات أشعر بأننى أوتيت من القوة ما أستطيع أن أتغلب به على العقبات كلها ، ولا

تحفى فى تلك اللحظات الجراح والقروح ، فإنى أضمدها وأنظفها بيدي ، وسأمرض المصاب وسأكون مستعدة لتقبيل أمثال هذه الجراح » .

« إنه كثير وحسن أن يمتلئ عقلك بأمثال هذه الأحلام لا غيرها ، وفى بعض الأحيان ستفعلين الخير فى الواقع دون أن تدري » .

« نعم ، ولكن هل أستطيع طويلاً مثل هذه الحياة ؟ » واسترسلت فى الحديث وقد اشتد حماسها إلى حد الهوس « هذه هى المسألة الرئيسية ، هذه هى المسألة التى تؤلم نفسى أشد الألم ، وإنى أعرض عني وأسأل نفسى « هل تبقى طويلاً بهذا السبيل ؟ وإذا كان المريض الذى تغسل جراحه لا يتلذذ بالشكر ومعرفة الجميل وإنما أتعبك بزواته دون أن يقدر خدماتك الخيرة وشرع فى انتفاصك وألقى عليك أوامره فى خشونة وتقدم للسلطات العليا بالشكوى منك (وهو ما يحدث فى أغلب الأوقات حينما يقاسى الناس الآلام الشديدة) فإذا يكون إذن ؟ فهل تظل محتفظاً بحبك أو تتخلى عنه ؟ أعلم أننى انتهيت وأنا أشعر بالخوف والنفور إلى تلك النتيجة ، وهى : أنه إذا كان هناك شئ محمود حبي للإنسانية فإنه نكران الجميل ، وموجز القول إننى خادم مأجور أنتظر الأجر فى الحال — أى المدح وأن أتقاضى ثمن الحب حباً ، وخلافاً لذلك لا أكون أهلاً لأن أحب أى إنسان » .

واعترتها نوبة تعنيف للنفس ، وختمت حديثها بنظرة إلى شيخ الكنيسة تم على الاعترام المتحدى .

فقال الأب زوسيا « إنها تشبه القصة التى حدثنى عنها مرة أحد الأطباء ، وكان رجلاً قد تقدمت به السن وكان من غير شك رجلاً بارعاً ، وكان يتحدث فى صراحة مثل صراحتك ولو أنها كانت فى قالب المزل ولكن المزل المشوب بالمرارة ، كان يقول « إنى أحب الإنسانية ولكنى أعجب من نفسى ، فكلماً ازداد حبي للإنسانية بوجه عام قل حبي للإنسان بوجه خاص ،

وكثيراً ما توصلت في أحلامي إلى عمل مشروعات حماسية لخدمة الإنسانية ، وربما كنت أواجه الصלב في الواقع إذا استلزم الأمر ذلك فجأة ، ومع ذلك فإني لا أستطيع أن أعيش مع أى إنسان في حجرة واحدة مدة يومين كما أعرف ذلك بالتجربة ، وحالما يقترب منى أى إنسان تزعج شخصيته سرورى بنفسى وتحد من حريتي وفي مدى أربع وعشرين ساعة أبداً أكره خير الناس وأحسنهم ، أكره واحداً لأنه يطيل الإقبال على الطعام وأكره الآخر لأنه مصاب ببرد ولا ينفك يتمخط من أنفه ، وأناصب الناس العداء في اللحظة التي يقتربون فيها منى ، ولكن كان يحدث دائماً أننى كنت كلما ازدادت كراهة للناس أفراداً ازداد حبى للإنسانية وتحمسى لها .

« ولكن ما العمل ؟ ماذا يفعل الإنسان في مثل هذه الحالة ؟ أعليه أن ييأس ؟ » .

« كلا يكفى شعورك بالضيق من هذه الحالة ، فافعل ما تستطيعين وكله سيضاف إلى حسابك ، وقد حدثت في نفسك أشياء كثيرة ما دمت قد استطعت أن تعرفى نفسك بهذا العمق وهذا الإخلاص ، فلو أنك كنت تتحدثين إلى بمثل هذا الإخلاص لخرد أن تظفرى باستحسانى لصراحتك كما فعلت في التو واللحظة فإنك بطبيعة الحال لن تصلى إلى شىء في طريق تحقيق الحب الحقيقى ، ولا يكون الأمر أكثر من أحلام وتذهب حياتك جميعها كما يزول الطيف ، وفي مثل هذه الحالة ستمتنعين عن التفكير في الحياة الأخرى كذلك ، وفي النهاية تهبط نفسك على أية صورة من الصور » .

« لقد سمعتنى ! الآن ليس غير وأنت تتحدث أدركت أننى حقيقة كنت أسعى لأنال منك استحسان صراحتى حينما قلت لك إننى لا أستطيع احتمال نكران الجميل ، لقد كشفت لى نفسى ، لقد نفذت بنظراتك إلى أعماقى وأوضحت لى نفسى ! » .

« أتقولين الحق ؟ » حسن ، الآن بعد هذا الاعتراف أعتقد أنك متخلصة وأنت طيبة القلب ، فإذا لم تصلى إلى السعادة فاذكرى دائماً أنك سائرة في الطريق الصحيح ، وابذلى جهدك في عدم التنحى عنه ، وتجنبى الزيف قبل كل شىء ، كل ضروب الزيف وبخاصة عدم الصدق مع نفسك ، وراقبى ما تتورطين فيه من الخداع وتأمليه في كل ساعة وكل لحظة ، وتحاشى الاحتقار ، احتقارك للغير واحتقارك لنفسك ، وما يبدو لك سيئاً في داخل نفسك سيزداد صفاء ونقاء كلما راقبته في نفسك ، وتجنبى الخوف كذلك ، ولو أن الخوف لا يكون سوى نتيجة لكل لون من ألوان الزيف ، ولا تخشى خور العزيمة في الوصول إلى الحب ، ولا يشد بك الخوف حتى من أعمالك السيئة ، ويوسفنى أنى لا أستطيع أن أواسيك بأكثر من هذه الكلمات لأن العمل بالحب شىء قاس فطبع إذا قرن بالحب في الأحلام ، فالحب في الأحلام شديد الحرص على العمل المباشر ، العمل الذى يتم بمشهد من الجميع ، والناس مستعدون لأن يجودوا بحياتهم إذا لم يطل أمد المحنة ومرت مسرعة والجميع يشهدونها ويهللون لها كأنهم على المسرح ، ولكن الحب القفال عمل وجلد ، وهو كذلك عند بعض الناس ربما كان علماً كاملاً ، وإنى أتنبأ أنك حينما ترين وقد أخذك الروح أنك برغم ما بذلت من الجهود قد ابتعدت عن الهدف الذى قصدت إليه بدلا من الاقتراب منه — ففى تلك اللحظة نفسها أتنبأ بأنك ستصلين إليه وترين بوضوح قوة المولى المعجزة الذى كان طوال الوقت يرعاك بحبه ويسدد خطواتك في الخفاء ، وسأخبرنى لأنى لا أستطيع البقاء معك أكثر من ذلك ، إنهم ينتظروننى ، أستودعك الله » .

كانت السيدة تذرف الدموع .

« ليز ، ليز ! باركها — باركها » .

فقال الأب زوسيا مداعباً « إنها غير جديرة بأن تحب ، لقد لحظت شقاوتها طوال الوقت ، ولماذا

كنت تضحكن من أليوشا ؟ » .

والواقع أن ليز كانت خلال ذلك الحديث مشغولة بالسخرية من أليوشا ، فقد لحظت من قبل أن أليوشا غلب عليه الحياء ، وحاول أن يتحاشى النظر إليها ، وقد وجدت في ذلك موضوعاً للفكاهة والتسلية ، وانتظرت عاملة أن تلتقى عيناها ، ولما عجز أليوشا عن احتمال نظرتها المتعمدة اضطر اضطراراً إلى أن ينظر إليها فجأة فضحكت في وجهه ضحكة الفائزة المنتصرة ، فازداد ارتباك أليوشا وأظهر استياءه ، وأخيراً حول وجهه عنها وتوارى خلف ظهر شيخ الكنيسة ، وبعد دقائق قليلة جذبته ثانية نفس القوة التي لا تقاوم فحول وجهه ليرى هل هي لا تزال موجهة إليه نظراتها أو أنها انصرفت عنه ، ووجدتها تكاد تكون مائلة من مقعدها لتظل ناظرة إليه متلهفة على مبادلته إياها النظر ، ولما التقت عيناها ضحكت فلم يستطع الأب زوسيا إلا أن يقول « لماذا تسخرين منه هكذا أيتها الفتاة الشقية ؟ » .

وفجأة وعلى غير انتظار احمر وجهها خجلاً ، وأبرقت عيناها وظهرت على وجهها علامات الجد والاهتمام ، وأخذت تتحدث في سرعة وعصبية وبصوت فيه حماسة وغضب قائلة « لماذا نسى كل شيء ؟ لقد كان يحملني وأنا طفلة صغيرة ، وكنا نلعب معاً ، وكان يأتي إلينا ليعلمني القراءة ، أتعرف ذلك ، ومنذ سنتين مضت حينما ذهب بعيداً قال لي إنه لن ينساني وإننا صديقان إلى الأبد إلى الأبد ! والآن أراه متخوفاً مني ، أحسبني محاولة أن آكله ؟ لماذا لا يريد الاقتراب مني ؟ لماذا لا يتكلم ؟ ولماذا لا يحضر لزيارتنا ؟ إنك لا تمنعه عن القيام بذلك ، فنحن نعرف أنه يذهب إلى كل مكان ، وليس من اللائق أن أدعوه للزيارة ، وكان يجب عليه أن يكون هو البادئ بالتفكير فيها إذا كان لم ينسني بعد ، والآن هو يسعى لإنقاذ روحه ! فلماذا ألبيستموه هذا الجلباب الواسع ؟ إنه إذا جرى سيتعثر ويسقط » .

وفجأة خبأت وجهها في يدها وأخذت تضحك ضحكة عصبية طويلة مسموعة لا سبيل إلى مقاومتها ، وقد أصغى إليها شيخ الكنيسة باسم الوجه وباركها في رفق وحنان ، وبينما كانت تقبل يده ضغطت عليها ورفعها إلى عينها وبكت ..

« لا تغضب مني ، إلى ساذجة ولا أصلح لشيء ، وربما كان أليوشا على حق ، ربما كان مصيباً الصواب كله في عدم رغبته في زيارتنا ليرى فتاة تثر الضحك » فقال شيخ الكنيسة « أوكد لك أني سأرسله » .

وقد أجرى دستويفسكي الكثير من أفكاره واتجاهاته على لسان الأب زوسيا وهو من الشخصيات البارزة في روايته العظيمة ، من قبيل ذلك حديث زوسيا عن العلم في العالم الحديث وتأثيره في إضعاف الناحية الروحية في الفصل الثالث من الكتاب السادس وذلك حيث يقول عن معاصريه « عندهم العلم ولكن في العلم لا شيء سوى ما هو موضوع للحواس ، فالعالم الروحي والجزء الأسمى من كيان الإنسان يهذب برمته ويخذف بنوع من الانتصار بل بشيء من الكراهة ، فقد أعلنت الدنيا عهد سيادة الحرية وبخاصة في العهد الأخير ، ولكن ماذا نرى في هذه الحرية التي يتحدثون عنها ؟ ليس فيها سوى العبودية وهلاك النفس . لأن الدنيا تقول « عندك رغبات ولذلك اعمل لأعلى إشباعها لأن لك من الحقوق في ذلك مثل ما لأغنى الناس وأقواهم نفوذاً ، ولا تخش إشباع هذه الرغبات بل اعمل على مضاعفة رغباتك » هذه هي النزعة الجديدة السائدة في العالم ، وهم يرون الحرية في ذلك ، ولكن ما الذي يسفر عنه حق مضاعفة الرغبات ؟ عند الأغنياء العزلة والانتحار الروحي وعند الفقراء الحسد والقتل لأنهم أعطيت لهم حقوق ولكن لم يبصروا بالوسائل التي يسدون بها حاجاتهم ، وهم يزعمون أن العالم يزداد اتحاداً وترابطاً في مجتمع أخوي لأنه قهر المسافات ، وطوى الأبعاد ، وأطلق الأفكار مخلقة في الهواء ، ولكن وا أسفاه لا يمكن الوثوق بمثل

لنفسه ؟ إنه في عزلة فهاذا يعنيه من شؤون باقي الإنسانية ؟
لقد نجحوا في جمع حشد أعظم من الأشياء ولكن
الابتهاج في الدنيا قد ولى مدبراً .

ولكن دستويشسكى مع ذلك كله لا يفقد الأمل
ويقول عن لسان زوسيا (« هل يمكن أن يكون حلماً أن
الإنسان في النهاية وخاتمة المطاف سيجد سروره وارتياحه
في الأعمال المضيئة والصنائع الإنسانية لا في المتع الوحشية
شأنه في هذا العصر وفي النهم والفسوق والتظاهر
والمفاخرة والحسد المتبادل ؟ إنى أعتقد اعتقاداً راسخاً أن
ذلك ليس حلماً وأن الوقت قد حان ، والناس يضحكون
ويتساءلون متى يحنى هذا الوقت وهل يبدو أنه قادم ؟
إنى أعتقد أنه بعون المسيح سوف نحقق هذا الشيء
العظيم ، وكم من الأفكار الكثيرة التي غشيت الأرض
في تاريخ الإنسانية كانت لا تخطر بالبال قبل ظهورها
بعشر سنوات ! وحينما جاء أوانها وحل ميعاد ظهورها
قدمت وانتشرت في أنحاء الأرض جميعها » .

وقد وجهت تهمة قتل فيدور كارامازوف إلى ابنه
ديمترى ، وكانت هناك شبهات وقرائن كثيرة تدعو إلى
هذا الاتهام ، ولكن الواقع أن القاتل الحقيقي كان ابنه
غير الشرعى سمردياكوف ، وفي سرد أحداث الرواية
بعد إلقاء القبض على ديمترى متهماً بقتل أبيه تتجلى براعة
دستويشسكى الكاتب الروائى وخصب خياله ووصفه
للمحاكمة وإجراءاتها ودفاع المحامى فيتيكوفتش عن
المتهم غاية في قوة التصوير ودقة التعبير .

وقد اتهم دستويشسكى بالرجعية حيناً من الزمن
في روسيا السوفيتية وأعرض عن كتبه وأغفل ذكره ،
ولكن في السنوات الأخيرة خفت حدة نقده والتحامل
عليه ، وفسرت اتجاهاته الدينية تفسيراً فلسفياً ومهما
يكن من الأمر فإنه لم يكن من المناسب أن يتنكر النقاد
الروسيون لمفخرة من مفاخر أدهم القومى ولروائى فنان
فيلسوف يضعه نقاد الغرب في مصاف أمثال شكسبير
وهومر وغيرهما من القمم العالية في الأدب الإنسانى .

هذه الرابطة الجماعية ، فتفسير الناس للحرية على أنها
الإشباع المضاعف السريع للرغبات يجعلهم يشوهون
طبيعتهم ، لأن ذلك ينمى فيهم رغبات طائشة رعناء
وعادات سيئة ، وأوهاماً مضحكة ، فهم لا يعيشون
إلا للحسد المتبادل وللترف وحب المظاهر ، وستكون
عندهم حفلات العشاء والزيارات والعربات والمناصب
والدرجات والخدم والحشم في رأيهم من المستلزمات
التي يضحى من أجلها بالشرف والشعور الإنسانى ،
بل سينتحر الناس إذا عجزوا عن إشباع هذه الرغبات ،
ونرى هذا الشيء نفسه بين الذين لا يعدون من الأغنياء
في حين أن الفقراء سيغرقون حاجتهم التي لم تشبع في
العكوف على الشراب ، ولكن سرعان ما يشربون
الدماء بدلاً من النبيذ ، وهم مسوقون إلى ذلك ، وأسأل
هل مثل هؤلاء الناس أحرار ؟ وأعرف أحد « أبطال
الحرية » وقد أخبرنى هو نفسه أنه حينما حرم في السجن
من الطباق وصل به الضيق وسوء الحال إلى حد أنه خان
القضية التي نصب نفسه مدافعاً عنها من أجل الحصول
على الطباق ! ومثل هذا الرجل يقول « إننى أجاهد من
أجل قضية الإنسانية » .

فكيف يستطيع مثل هذا الإنسان الجهاد ؟ وماذا
يصلح له ؟ ربما كان قادراً على أن يقوم ببعض الأعمال
السريعة ولكنه لا يستطيع أن يثبت طويلاً ، فلا عجب
أن أمثاله بدلاً من أن يظفروا بالحرية قد وقعوا في شرك
العبودية وبدلاً من أن يخدموا قضية الحب الأخوى
 واتحاد الإنسانية قد ارتبطوا في حمأة الخلاف والعزلة
كما حدثني الزائر الغامض وأستاذى في شبابى ، ولذلك
نرى فكرة خدمة الإنسانية والحب الأخوى وتضامن
النوع البشرى قد أخذت تضعف وتتضاءل في العالم ،
وحقيقة إن هذه الفكرة تتناول في بعض الأوقات
بالاحتقار والاستنكار ، لأنه كيف يستطيع الإنسان
الخلاص من مألوف عاداته ؟ وماذا يصير إليه أمره إذا
إذا كان أسيراً لعادة إشباع رغباته العديدة التي خلقها